

الأوضاع الاجتماعية في مصر وبلاد الشام في أوائل عهد السلطان برقوق (784-801هـ) 1382-1399م) من خلال رحلتي فريسكو بالدي وسيفولي الإيطاليين

عصام مصطفى عقله¹، مضر عدنان طلفاح²

<https://doi.org/10.54134/jzha.16.1.2>

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تعرف رحلتي الرحالين الإيطاليين فريسكو بالدي (Leonardo Frescobaldi) وسيفولي (Simone Sigoli)، اللذين قدما إلى مصر وبلاد الشام في سنة 786هـ/ 1384م، وما تضمنته تلكا الرحلتان من معلومات عن الدولة المملوكية آنذاك في جميع مناحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وتحاول تعرف مصادرها في رحلتيهما غير مشاهدتهما التي ضمناها في الرحلتين، كما تحاول إبراز أهم ما جاء في الرحلتين عن الأوضاع الاجتماعية في مصر وبلاد الشام، وقيمة تلك المعلومات التي أوردها عن الأوضاع الاجتماعية، خاصة العادات والتقاليد، والأزياء، والطقوس الدينية، والأعياد، وأوضاع المرأة في المجتمع الإسلامي. وقد خلصت الدراسة إلى الأهمية الفائقة للرحلتين في دراسة الأوضاع الاجتماعية لمصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وإلى اعتماد الرحالين على رواة من القناصل والمترجمين والتجار لنقل معلومات مهمة عن الأوضاع الاجتماعية لمصر وبلاد الشام، كما خلصت إلى تركيز الرحالين على العادات والتقاليد والأزياء بحيث قدّموا معلومات فريدة حولها لم ترد بهذا التفصيل عند غيرهما من الرحالة الأوروبيين.

الكلمات الدالة: الرحلات، المجتمع المصري والشامي، الدولة المملوكية، فريسكو بالدي، سيفولي.

المقدمة

شغلت قضية الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين أذهان مواطني الغرب الأوروبي طوال فترة القرون الوسطى وما تلاها من قرون، وكان من دوافع الحملات الفرنجية الصليبية التي شنّها الغرب الأوروبي على بلاد الشام ومصر (488هـ/ 1095م) القيام بالحج لكن بصورة مسلحة (قاسم 1990م: 16-33)؛ لذلك كثرت منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي رحلات الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة، خاصة بعد سيطرة الفرنجة الصليبيين على القدس (492هـ/ 1099م)، وتأسيسهم لإمارات في بلاد الشام (عوض، 1992م: 27). ولما نجح السلطان صلاح الدين الأيوبي (569-589هـ/ 1174-1193م) من تحرير القدس سنة 583هـ/ 1187م (العماد الأصفهاني، 2003م: 116-136؛ ابن الأثير، 1979م: 541/11 وما بعدها)، وتمكن من التصدي للحملة الفرنجية الصليبية الثالثة (585-588هـ/ 1189-1192م) (انظر عنها: مجهول، 2000م) التي انتهت بتوقيع صلح الرملة سنة 588هـ/ 1192م، الذي كان من

¹ قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الشارقة، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية.

² قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الشارقة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك.

تاريخ الاستلام: 2021/5/15، تاريخ القبول: 2021/10/20.

شروطه السماح للحجاج المسيحيين بدخول القدس وبقية الأماكن المقدسة للقيام بحجهم (شاهين، 2001م: 389)، واستمر المسلمون، في السماح للأوروبيين بالحج إلى الأماكن المقدسة في بلاد الشام ومصر (سليمان، 2013م: 39) حتى بعد القضاء على الوجود الفرنجي الصليبي سنة 690هـ / 1291م (بيبرس، 1998م: 278-282) وقد نتج عن تلك الزيارات للحج من قبل الأوروبيين قيام بعض أولئك الحجاج بتدوين رحلاته إلى الأماكن المقدسة، وغلب على تلك الرحلات الاهتمام بوصف الكنائس والمزارات المسيحية في مصر وبلاد الشام، لذلك كان العديد منها محدود الفائدة لتعرف أوضاع مصر وبلاد الشام منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وحتى نهاية الدولة المملوكية سنة 923هـ / 1517م (يوحنا فورزبورغ، 1997م: 11 من مقدمة المترجم).

ومن تلك الرحلات التي زار أصحابها الأراضي المقدسة في العصور الوسطى: رحلة سايولف (Saewulf) سنة 496-495هـ / 1103-1102م (سايولف، 1997م)، ورحلة دانيال الراهب (Daniel) سنة 500-501هـ / 1106-1107م (دانيال الراهب، 2003م)، ورحلة فيتلوس (Fetellus) ما بين سنة 512-524هـ / 1118-1130م (فيتلوس، 2011م)، ورحلة يوحنا فورزبورغ (John of Würzburg) القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي (يوحنا فورزبورغ، 1997م)، ورحلة بورشارد (Burchard) (ت 630هـ / 1232م) (بورشارد، 1995م)، ورحلة لودولف فون سوخم (Ludolph von Suchem) (زكار، 2000م)، ورحلة جون ماندفيل (John Mandeville) ما بين سنوات 723-756هـ / 1322-1356م (جون ماندفيل، 2012م)، ورحلة يوهان شيلتبرغر (Johannes von Schiltberger) ما بين سنوات 793-826هـ / 1394-1427م (شيلتبرغر، 2017م).

وضمن هذا السياق تأتي رحلة الرحالين الإيطاليين فريسكو بالدي (Frescobaldi) وسيغولي (Sigoli)، اللذين قدما إلى مصر وبلاد الشام بغاية الحج المقدس، وإن أشار فريسكو بالدي إلى أن أسقف فلورنسا ميسر نوفريو (Magister Onofrio) طلب منه بعد أن علم نيته السفر للحج المقدس تزويده بمعلومات عن المرافئ والأراضي التي تصلح لنشر معسكرات الجيوش ليصطحب الحملات الصليبية إذا وجهت إلى مصر وبلاد الشام بعد ذلك (فريسكو بالدي، 2010م: 62)، وهي معلومة مهمة جدا تظهر بعض غايات الرحالة الأوروبيين من رحلاتهم، وهي تحتاج لدراسة مستقلة تجلي تلك الاهداف والغايات.

بدأت الرحلة سنة 786هـ / 1384م حيث غادرت مجموعة من الإيطاليين مكونة من ثلاثة عشر رجلاً مدينة فلورنسا الإيطالية إلى البندقية (فينيسيا)، ومنها انتقلوا بحراً إلى الإسكندرية التي وصلوها في 10 شعبان 786هـ / 27 أيلول 1384م، وانتقلوا منها إلى القاهرة التي دخلوها في 5 رمضان 786هـ / 21 أكتوبر 1384م، ثم غادروها بعد أن أقاموا بها ثمانية أيام إلى سيناء، ومنها إلى غزة، فالقدس، مروراً بالخليل وبيت لحم، ثم سافروا من القدس إلى نهر الأردن لعداسته لدى المسيحيين ثم عادوا منه إلى داخل فلسطين حيث زاروا طولكرم، والجليل، ومنها إلى دمشق التي وصلوها في 7 ذي القعدة 786هـ / 9 كانون الأول 1384م، وغادروها في 16 ذي الحجة 786هـ / 29 كانون الثاني 1385م إلى بيروت التي غادروها بحراً إلى إيطاليا في 28 صفر 787هـ / 10 نيسان 1385م، ووصلوا إلى البندقية في 10 ربيع الآخر 787هـ / 21 أيار 1385م (انظر: فريسكو بالدي، 2010م: 61، 63، 70، 75، 78، 87، 91، 97، 99، 100، 108؛ سيغولي، 2010م: 119، 124، 133، 134، 135، 136، 139، 141).

بناء على ذلك، فقد أقاموا وتنفقوا في مصر وبلاد الشام لمدة سبعة أشهر تقريباً، زاروا خلالها المدن الرئيسية - كما ذكرنا سابقاً - مما مكنهم من مشاهدة معالم كثيرة في تلك الديار واحتكوا خلالها بالأمرء، والتجار، والقناصل، والعامّة،

ولهذا يغدو ما قدماه عن المنطقة في فترة زيارتهما مهماً جداً، كونه رواية مشاهدين للأحداث. ولما كتب كل واحد منهما رحلته بعيداً عن الآخر، وذلك بعد عودتهما، إذ كتب فريسكو بالدي كتابه بعد سنة 792هـ/ 1390م، في حين كتب سيغولي كتابه، واطلع عليه الإيطاليون في سنة 792هـ/ 1390م (فريسكو بالدي، 2010م: 43-44 من المقدمة)، فإن كل واحد منهما ذكر أشياء استرعت انتباهه تختلف قليلاً عن الآخر، واهتم كل منهما بأمور لم يهتم بها الآخر، أو ذكرها باختصار، من مثل تركيز فريسكو بالدي على الكنائس والمزارات التي كانت أقل تركيزاً لدى سيغولي، ورغم ذلك فإن تطابق روايتهما عن بعض المشاهدات يرفع درجة الثقة في تلك الرواية. ويجدر هنا التنبيه إلى أن الرحلتين تحويان معلومات لا يمكن أن يشاهدها مثل حفلات الزواج في القاهرة، لكنهما نقلتا هذه الأمور عن المترجمين والسفراء الأوروبيين الموجودين في مصر والشام، والمقيمين بها منذ فترة طويلة، خاصة أن بعض أولئك المترجمين الأوروبيين أسلموا مع زوجاتهم في مصر، وتمكنوا بسبب إسلامهم من التغلغل داخل المجتمع المصري، فنقلوا ما شاهدوه وشاهدته زوجاتهم لأولئك الرحالة، وخاصة ترجمان القاهرة الذي كان من أصل بندقى لكنه أسلم وزوجته ووالد زوجته⁽³⁾ (فريسكو بالدي، 2010م: 78)، وغيره من المترجمين في الإسكندرية (سيغولي، 2010م: 121).

وكان من مصادرها أيضاً القناصل الأوروبيون الموجودون في الإسكندرية، ودمشق، حيث ذكرا وجود رسائل توصية معهم إلى أولئك القناصل الذين استقبلوهم في الإسكندرية (انظر عن القناصل ودورهم: بيداني، 2017م: 76، 125-144)، وذكرنا من أولئك القناصل: القنصل الفرنسي، وقنصل البندقية، وقنصل جنوة وغيرهم (فريسكو بالدي، 2010م: 70-72، 112؛ سيغولي، 2010م: 122)، وذكر فريسكو بالدي استقبال قنصل البندقية لهما في دمشق (فريسكو بالدي، 2010م: 112). وهنا يجب الإشارة إلى الدور المهم الذي لعبه القناصل لأنه المسؤولين أمام السلطات المملوكية عن هؤلاء القادمين من أوروبا.

وشكل الأوروبيون المقيمون و الرحالة و الحجاج و التجار مصدراً مهماً لهما عن الأمور التي لم يشاهدها، حيث أورد استقبال العديد من الأوروبيين لهما في دمشق، وخاصة من البندقية، ويبدو أنهم حدثوهم عن بعض ما دونه في رحلتهم (فريسكو بالدي، 2010م: 112)، وذكر سيغولي أنه نقل عدد سكان الإسكندرية من رحالة مسيحي قابله هناك (سيغولي، 2010م: 121)، كما اعتمد سيغولي على تاجر أوروبي مقيم في القاهرة في ذكر بعض عادات رجال ونساء مصر، واعتمد عليه في قضية دفع السلطان المملوكي مبلغاً مالياً سنوياً لملك الحبشة لئلا يلوث نهر النيل أو يمنع جريانه إلى مصر، وقد أخطأ سيغولي فذكر أن المبلغ يدفع لملك الهند، وقد تنبه مترجم الرحلة للخطأ وصوبه في الحاشية (سيغولي، 2010م: 132-133).

كما اعتمدا على المترجمين المسلمين المرافقين لهما في تنقلاتهما في استقاء بعض المعلومات عما لم يتمكنوا من مشاهدته من مثل المترجم سيد (Saeto)، الذي حدثهم عن جزيرة رشيد في مصر التي لم يتمكنوا من زيارتها، ووصفه سيغولي بأنه صادق ومسلم طيب، تجاوز عمره السبعين، وأنه اختص بمرافقة الحجاج إلى سيناء والقدس، وأنه رافق أكثر من 67 فوجاً من الحجاج إليهما (سيغولي، 2010م: 124).

وقد قدّم الرحالان فريسكو بالدي وسيغولي وصفاً مهماً لمختلف المظاهر السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية لمصر وبلاد الشام في الفترة التي زارا بها تلك المنطقة تحت حكم الدولة المملوكية.

(3) وهمت سماح السلاوي، فجعلته أميراً مملوكياً من أصل بندقى (السلاوي، د.ت: 72).

ولما كانت رحلتاهما من الرحلات المهمة، والتي نقلت إلى العربية قبل عقد من الزمن كان لا بد من دراسة المادة الموجودة فيهما، وتبيان أهم ما تشتمل عليه، خاصة أن الاعتماد على رحلتيهما كان محدوداً في الدراسات العربية الحديثة التي تناولت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام في بدايات الدولة المملوكية الثانية، حيث أن زيارتهما تمت في بدايات حكم السلطان الظاهر برقوق (784-801هـ/ 1382-1399م) أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية (المقريزي، 1997م: 5/ 441-448)، ورغم كثرة الدراسات، فلم نستطع رصد دراسات اعتمدت عليهما سوى دراسة الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي لسماح السلاوي التي اعتمدت على الرحلتين في ثلاث عشرة إشارة في الأوضاع الاجتماعية، وأوضاع وأنظمة البلاط المملوكي (السلاوي، د.ت: 72، 77، 84، 85، 90، 91، 237، 250، 255، 259، 260، 261، 279). ودراسة رؤية الرحالة الأوروبيين لعادات وتقاليد المسلمين إبان العصر المملوكي (648-923هـ/ 1250-1517م)، واعتمدت عليهما في تسع إشارات (السلاوي، 2012م: 214، 215، 217، 219، 222، 223، 225، 233، 234)، واعتمدت على الرحلتين باللغة الإنكليزية.

ولا بد هنا من التنويه إلى أن الرحلتين تتفاوتان في وصف مناطق مصر وبلاد الشام، حيث يهتم فريسكو بالدي بقضايا مثل المدن المصرية الواقعة على الطريق إلى القاهرة بصورة دقيقة، بينما نجد سيغولي لا يهتم بهذا الأمر بالقدر الذي يهتم به فريسكو بالدي، ولكنه يركز أكثر على أوصاف الناس، وأديانهم، وملابسهم، وعاداتهم وتقاليدهم أكثر مما يهتم به فريسكو بالدي (قارن: فريسكو بالدي، 2010م: 75-77؛ سيغولي، 2010م: 123-124، 126-127)، لذلك فإن هناك بعض التفاصيل الموجودة في رحلة فريسكو بالدي غير موجودة في رحلة سيغولي، أو نجدها مختصرة، والعكس صحيح، إضافة إلى أنهما يتباينان في تقدير بعض القضايا تبعاً لتدقيق كل واحد منهما على ما يجذب اهتمامه أكثر، أو نتيجة لاعتماد كل واحد منهما على شخصية ينقل عنها معلوماته فيما لم يستطع أن يراه أو يحصيه بذاته، إضافة إلى أن فريسكو بالدي ركز أكثر من سيغولي على الكنائس والمزارات المسيحية في مصر وبلاد الشام، وشغلت تلك القضايا مادة كبيرة في رحلته، في حين نجد سيغولي أقل اهتماماً بها بل أوردها بشكل مختصر في آخر رحلته، وجعل تركيزه أكثر على مشاهداته عن مصر وبلاد الشام جغرافياً، وزراعياً، وسكانياً، واجتماعياً (انظر: سيغولي، 2010م: 141-153).

ركز الرحالان فريسكو بالدي وسيغولي على المظاهر الاجتماعية في مدن مصر أكثر من تركيزهما واهتمامهما بتلك المظاهر في مدن بلاد الشام، ويبدو أن ذلك يعود لأسباب منها أن وصولهما لمصر كان قبل دخولهما لبلاد الشام، وذلك لعقد اتفاقية بين المماليك والبابوية سنة 740هـ/ 1340م نصت على أن تدفق الحجاج إلى الأماكن المقدسة يجب أن يمر بداية من الإسكندرية ثم ينتقلون إلى فلسطين (سليمان، 2013م: 39)، لذلك سجلوا الأوضاع الاجتماعية في مصر بتأثير الانبهار بالمشاهدة الأولى للمجتمعات الإسلامية الغربية عليهما، والمغايرة التي وجدوها في المجتمع الإسلامي عن المجتمع الأوروبي آنذاك، إضافة إلى أن التشابه الاجتماعي الكبير بين المجتمع المصري والشامي في ذلك الوقت دفعهما إلى عدم التوسع في ذكر الأوضاع الاجتماعية في بلاد الشام، لأنه سيغدو تكراراً لما ذكره عن المجتمع المصري، وكذلك يعود السبب - فيما نرجح - إلى قضاء وقت في مصر مكثهما من الاطلاع على تفاصيل المجتمع المصري لقلة الأماكن المسيحية المقدسة في الإسكندرية والقاهرة التي زارها كما ورد في رحلتيهما (فريسكو بالدي، 2010م: 73-83؛ سيغولي، 2010م: 119-133) في مقابل الكم الكبير من الأماكن الدينية المسيحية المتوافرة في بلاد الشام، والتي أشغلتها عن مراقبة الأوضاع الاجتماعية فيها، والتي أوردا زيارتهما لها، مما مكنتهما في مصر من

التنقل داخل الإسكندرية والقاهرة، ووصف الحياة الاجتماعية بها (فريسكو بالدي، 2010م: 99-110؛ سيغولي، 2010م: 141-153).

وهنا لا بد من التنويه إلى أن ما يقدمه فريسكو بالدي وسيغولي صورة لما شاهده، وأخبر به من قبل بعض الذين احتكوا بهم في مصر وبلاد الشام، إضافة إلى ما جذب انتباههما من مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر وبلاد الشام خلال سنتي 786هـ/ 1384م وأوائل سنة 787هـ/ 1385م أثناء حكم السلطان الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية.

أولاً- السكان:

لعل أولى الصور المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية المتعلقة بالسكان هي ما أورده الرحالان حول الكثافة السكانية في مصر وبلاد الشام، إضافة إلى الازدهار الكبير والاتساع لمدنهما بحيث قدما تقارير مهمة عن تعداد سكان الإسكندرية التي قدرها فريسكو بالدي بحدود (60,000) نسمة (فريسكو بالدي، 2010م: 71) في حين قدر سيغولي العدد (50,000) نسمة بناء على ما أخبره به أحد الرحالة الأوروبيين الذي لم يصرح باسمه (سيغولي، 2010م: 121)، كما تحدثا عن اكتظاظ مدينة دمياط بالسكان، وقدرتا أنها أكثر سكاناً من الإسكندرية (فريسكو بالدي، 2010م: 76؛ سيغولي، 2010م: 123)، واختلف الرحالان في تقدير مساحة القاهرة حيث قدرها فريسكو بالدي بـ 18 ميل طويلاً وربما أكثر من ذلك حسب نص سيغولي أما عرضها فقدره بثمانية أميال (فريسكو بالدي، 2010م: 71)، وقدر سيغولي طولها 12 ميلاً وعرضها بـ 30 ميلاً (سيغولي، 2010م: 130)، ولم يشارا إلى تقدير عدد سكانها، ولكن فريسكو بالدي تحدث بطريقة غير مباشرة عن كثافة السكان بها حيث تحدث عن وجود 60 ألف بغل يقود كل بغل غلام مخصصة لنقل الناس، و 130 ألف جمل لحمل الأخشاب وغيرها، و 100 ألف يعيشون في القاهرة بلا مأوى، كما أشار إلى وجود 25 ألفاً من المسيحيين الذي اعتنقوا الإسلام (فريسكو بالدي، 2010م: 80، 82)، هذا غير الجنود والأمرأ، والسكان العاديون، مما يشير إلى أن القاهرة كانت مزدحمة بالسكان، وبها عدد لا بأس به من السكان، وهو يدل على ازدهار القاهرة وكثافتها السكانية.

وتحدث سيغولي عن مدينة غزة، وأنها مدينة كبيرة وجميلة، ووصف الخليل بأنها مدينة، وذكر انتشار الخراب في بيت لحم، وقلة سكانها، وصغر حجمها، وأشار بإعجاب شديد إلى جمال مدينة القدس، وكبرها، وتوقف أمام دمشق واصفاً حجمها الكبير، وقدرها بحجم مدينة فلورنسا آنذاك، لكنه يذكر أن أرباضها (ضواحيها) إن إضيقت لها تصبح أكبر كثيراً من فلورنسا (سيغولي، 2010م: 134، 135، 136، 137)، وقدر فريسكو بالدي أن سكان أرباض دمشق يفوق عدد سكانها داخل الاسوار (فريسكو بالدي، 2010م: 111)، وقدر عدد من يخرج من أهل دمشق للحج في حدود 20 ألف نسمة، وتحدث عن ازدحام طرقها بالناس (فريسكو بالدي، 2010م: 111) مما يشير إلى كثافة السكان في مدينة دمشق في فترة زيارة الرحالان لها، ولعل ما يؤكد هذه الكثافة السكانية تعليق فريسكو بالدي على موكب الحج الدمشقي حيث ذكر - كما أسلفنا - أن عددها 20 ألف نسمة، ومع ذلك يذكر فريسكو بالدي أن عدد المشاركين في موكب الحج لم يؤثر على سكان المدينة بحيث بدا الأمر وكأنه لم يخرج منها أحد بسبب كثرة الناس فيها (فريسكو بالدي، 2010م: 111).

وتناول الرحالان الفئات المكونة للمجتمع المصري والشامي، فمن الناحية الدينية أكدوا على وجود ثلاث فئات، هي: 1- المسلمون: وهم يشكلون الغالبية العظمى من السكان حسب ما ورد في رحلتيهما في مصر وبلاد الشام (فريسكو

بالدي، 2010م: 70، 74، 80، 99، 101، 110-111؛ سيغولي، 2010م: 121، 125، 136)، ولم يشير إلى أي مذاهب أو فرق إسلامية متنوعة، مما يوحي وكأن المسلمين جماعة واحدة في وقت رحلتيهما، سواء من ناحية المذاهب أو الفرق، لكن الواقع كان غير ذلك، لأن المسلمين كانوا فرقا متعددة رغم أن الغالبية الساحقة كانوا من أهل السنة، لكن كان هناك وجود لأقليات شيعية ودرزية موجودة في بلاد الشام، لكن العذر لهما أنها لم يزورا المناطق التي تسكنها تلك الأقليات الدينية الإسلامية، أو أنها لم يستطيعا تبين هذا التمايز بين بعض المذاهب والفرق الإسلامية لجهلها بتلك الفرق والمذاهب، أو أن وجود الترجمان المرافق لهما المعين من قبل دولة المماليك ليقوم بقيادة مسيرتهما نحو بلاد الشام منع من إطلاعهما على هذا التمايز (فريسكو بالدي، 2010م: 85، 98، 109؛ سيغولي، 2010م: 134).

2- المسيحيون: تحدث الرحالان عن وجود للسكان المحليين والأوروبيين من المسيحيين، وإن أكد فريسكو بالدي على قتلهم مقارنة بالمسلمين (فريسكو بالدي، 2010م: 80)، وذكر الرحالان على وجود المسيحيين في الإسكندرية، والقاهرة، وبيت لحم، والناصر، والقدس، وصيدنايا التي أكدا على اقتصار سكانها على المسيحيين، ودمشق، وبيروت (فريسكو بالدي، 2010م: 74، 80، 100، 102، 109، 112؛ سيغولي، 2010م: 121، 132، 138، 148)، وأشار إلى وجود مذاهب مسيحية متعددة في مصر وبلاد الشام، وهم: اللاتين الذين أورد فريسكو بالدي أنهم أقلية بين المسيحيين (فريسكو بالدي، 2010م: 80)، وإغريق، ونوبيون، وأرمن، وأثيوبيون، واليعاقبة، والملكيين، وغيرهم (فريسكو بالدي، 2010م: 80، 101؛ سيغولي، 2010م: 121).

3- اليهود: أشار فريسكو بالدي وسيغولي إلى وجود ضعيف لليهود في مصر في مدينة الإسكندرية، ولم يشير إلى أي وجود لهم في بلاد الشام إلا في مدينة بيروت (فريسكو بالدي، 2010م: 71؛ سيغولي، 2010م: 121، 148)، وتحدث سيغولي عن وجود لطائفة السامريين من اليهود في الإسكندرية (سيغولي، 2010م: 121).

والجدير بالذكر هنا إلى تنبيه سيغولي إلى أن لكل دين و طائفة في مصر وبلاد الشام لون محدد للعمامة أو القبعة التي يعتمرونها، بحيث يتميزون بعضهم عن بعض، ويبدو أن اللون كان إلزامياً، فلا يجوز اعتمار عمامة من لون غير اللون المحدد، وبهذا يستطيع الإنسان معرفة دين أي فرد من أفراد المجتمع من لون العمامة التي يعتمرها، فالمسلمون يعتمرون العمائم ذات اللون الأبيض، وهنا يجدر التنويه أن هذا اللون ليس إجبارياً على المسلمين، حيث يستطيعون تغيير اللون على أن لا يكون لوناً لدين آخر، لكن كان اللون الأبيض الأكثر شهرة عند المسلمين في ارتداء العمائم، والظاهر أن سيغولي لما رأى كل من شاهده من المسلمين يعتمر العمامة البيضاء اعتقده لوناً خاصاً بالمسلمين لا يغيرونه (سيغولي، 2010م: 121).

وذكر سيغولي أن اليهود يعتمرون العمائم ذات اللون الأصفر، والمسيحيون لهم اللون الأزرق، والسامريون يعتمرون العمائم أو القبعات الحمراء (سيغولي، 2010م: 121)، ويبدو أن السلطة المملوكية تعاملت مع الفرقة السامرية من اليهود، وكأنها دين مستقل متميز عن اليهود⁽⁴⁾، لذلك أفردت لهم لوناً مختلفاً عن اليهود (بيبرس 1998م: 352)، الراجح أن هذا التمييز بالألوان لأصحاب الأديان المخالفة للمسلمين يأتي في إطار الغيار المفروض على أهل الذمة في الدولة المملوكية⁽⁵⁾ تمييزاً لهم عن المسلمين، ومغايرة لهم عنهم (بيبرس 1998م: 352).

(4) انظر حول السامريين، عقائدهم، وتعريفهم: التميمي، إباد هشام، السامريون وأثر البيئة الإسلامية فيهم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، الأردن، 1998م.

(5) أصدرت الدولة المملوكية سنة 700هـ/ 1301م مرسوماً سلطانياً يلزم أهل الذمة بالغيار، وهو قائم على لبس المسيحيين عمائم

4- المعتنقون للإسلام: أشار فريسكو بالدي إلى وجود مجموعة متميزة من المعتنقين للدين الإسلامي من المسيحيين واليهود، وقد عددهم في القاهرة لوحدها بحدود 25 ألفاً (فريسكو بالدي، 2010م: 80)، وذكر من بينهم الترجمان الذي رافقهم في رحلتهم، وهو مسيحي الديانة سابقاً من البندقية أسلم وزوجته ووالد زوجته (فريسكو بالدي، 2010م: 78). وتنبه الرحالان إلى تعدد أعراق السكان في مصر وبلاد الشام، حيث كانت الفئة الحاكمة من سلاطين وأمراء، وقادة الجيش، إضافة إلى الجنود من أعراق غير عربية متعددة، سواء من الأتراك، والتتر، والسودان، والفرنجة، والإغريق، والإيطاليين، يضاف لهم أحياناً بعض القبائل العربية البدوية، وبعض المتحولين إلى الإسلام من اليهودية والمسيحية، وإن بعدد قليل جداً (فريسكو بالدي، 2010م: 81).

ويبدو هنا أن فريسكو بالدي وهم في جعله التتر العنصر الثاني الرئيس، والذين سماهم التتر هم في الحقيقة الجراكسة الذين كانوا يجلبون عبيداً من مناطق القبيلة الذهبية (مغول القفجاق) ليبيعوا في أسواق مصر وبلاد الشام، وشكلوا العنصر الرئيسي للممالك في الدولة المملوكية الثانية أو البرجية، لذلك سميت بدولة الجراكسة (عبد السيد، 1966م: 12-24).

وهذا لا يمنع من وجود العنصر التتري بين الممالك لكن لم يكونوا بتلك الضخامة أو العدد ليجعلوا العنصر الثاني من عناصر الفئة الحاكمة والجيش.

ولم يذكر عرقاً محدداً لنقبة السكان، لكن الواضح أنهم كانوا من العرب، إضافة إلى حديثهما عن وجود جالية أوروبية من القناصل، وموظفي القنصليات، والمترجمين، والتجار من أصول أوروبية متعددة (فريسكو بالدي، 2010م: 70، 71، 112؛ سيغولي، 2010م: 132).

أما فئات السكان من ناحية محل الإقامة والعمل، فتحدثنا عن ثلاث فئات، هي:

أولاً- سكان المدن: وهؤلاء شكلوا أساس الانطباعات عن مصر وبلاد الشام عند الرحالين، وهم يقسمون - كما جاء في وصف الرحالين - إلى عدة فئات أولها الفئة الحاكمة من سلاطين وأمراء وقادة، وموظفي الدولة، وقد ذكروا الثراء الذي كانت تتصف به هذه الفئة، فقاما بوصف معسكر السلطان برقوق لأنهم وجدوه في رحلة صيد، وكان معسكره يتكون من 100 جناح، بها من النسور والصقور عدد كبير، ويحتاج جناحه الخاص لمئة جمل لحمل أمتعته، ويضم عدداً كبيراً من الغرف والصالات، إضافة لأجنحة الأمراء المرافقين له، بحيث يغدو وكأنه مدينة صغيرة (فريسكو بالدي، 2010م: 78؛ سيغولي، 2010م: 130)، ووصف سيغولي هدية أمير دمشق للسلطان برقوق، وكانت مكونة من مئة جمل محمل بالذهب والفضة، وأن السلطان وزعها على الأمراء المرافقين له (سيغولي، 2010م: 130-131)، وذكر سيغولي أن للسلطان سبع زوجات (سيغولي، 2010م: 130)، في حين ذكر فريسكو بالدي أن عدد زوجات السلطان مئة من النساء (فريسكو بالدي، 2010م: 83)، ويبدو أن الرحالين خلطوا بين الزوجات والجواري اللواتي يملكهن السلطان. ووصف فريسكو بالدي قصور الحكم في الإسكندرية وغزة التي دخلها، حيث ذكر أن قصر الحكم بالإسكندرية له باب كبير يحرسه مجموعة من الجنود، وكذلك قصر الحكم بغزة (فريسكو بالدي، 2010م: 72، 98).

كما تحدثنا عن فئة التجار في الإسكندرية، والقاهرة، ودمشق المزدهرة آنذاك (فريسكو بالدي، 2010م: 73، 88، 111؛ سيغولي، 2010م: 119، 138)، وتحدثنا عن توارث حرفة التجار لدى الأسر للحفاظ على أسرار الصنعة بحيث

باللون الأزرق، واليهود باللون الأصفر، والسامريون باللون الأحمر، وهو متطابق مع ما ذكره سيغولي، ويبدو أن هذا الأمر استمر في الدولة المملوكية. انظر: بيبرس، الدوادر، زبدة الفكرة، 352.

يكون الابن عاملاً بتجارة أبيه نفسها (فريسكو بالدي، 2010م: 111؛ سيغولي، 2010م: 138)، وذكر أيضاً فئة الحرفيين وتوارث صناعتهم من الأب إلى الابن، ويظهر من كلامهما أن أوضاعهم كانت جيدة (فريسكو بالدي، 2010م: 111؛ سيغولي، 2010م: 138)، كما تحدثا عن حرفة الترجمة والدلالة في مصر وبلاد الشام (فريسكو بالدي، 2010م: 75، 85؛ سيغولي، 2010م: 124)، وأوردا معلومات عن الحماليين والطهاة في الأسواق (فريسكو بالدي، 2010م: 82؛ سيغولي، 2010م: 139).

وتحدثا عن فئة معدومة من السكان في القاهرة قدر فريسكو بالدي عددها بمئة ألف ليس لهم مأوى، وينامون في العراء، يقومون بالعمل اليدوي بأجر قليل لا يتعدى الدرهم الواحد يومياً، وهم مستعدون للعمل بأي شيء مقابل الأجر (فريسكو بالدي، 2010م: 82).

ثانياً- سكان الأرياف: لم يتحدث الرحالان بمعلومات كثيرة عن سكان الأرياف، لكنهما أشارا إلى وجود قرى مزدحمة بالسكان على طول نهر النيل، وأشارا إلى تربيتهم المواشي، وعملهم بالزراعة، وأن الزراعة كانت مزدهرة، والمزروعات كثيرة ومتنوعة في السنة التي زارا بها مصر، وإن أشارا إلى أن أطفال تلك القرى كانوا يلوحون للسفن العابرة للنيل ليرموا لهم الليمون، وأنهم كانوا شبه عراة (فريسكو بالدي، 2010م: 76، 77؛ سيغولي، 2010م: 119، 123).

ثالثاً- البدو: أشار الرحالان إلى بدو سيناء، ووصفاهم بالفقر، وسوء الحال في الفترة التي زارا بها المنطقة، وأنهم يربون المواشي، وتحدثا عن بيوتهم التي كانت اما كهوفا أو بيوت مصنوعة من جلود الخرفان يضعونها على عصي ويجلسون تحتها، وهما هنا يصفان بيوت الشعر التي يشتهر بها سكان البادية (فريسكو بالدي، 2010م: 89، 91؛ سيغولي، 2010م: 134).

ثانياً- العادات والتقاليد:

رصد الرحالان مجموعة من العادات والتقاليد في مجتمع مصر وبلاد الشام في السنة التي زارا بها تلك المناطق (786-787هـ/ 1384-1385م)، لعل من أبرزها: رسوم الاستقبال في قصور الأمراء، والعادات المتبعة للدخول إليها، حيث ذكر فريسكو بالدي وصفاً دقيقاً لبعض القصور، وعادات الاستقبال فيها، منها قصر الحكم بالإسكندرية الذي كان مقراً لنائب الإسكندرية، وكان نائب مصر المملوكي عندما وصلا الأمير بلوط الصرغتمشي (العيني، 2002م: 163)، حيث ذكر فريسكو بالدي وجود باب كبير في أول القصر يتواجد عنده عدد من الجنود والحراس الذين من مهمتهم إدخال الضيوف إلى القصر، ومنع غيرهم من غير المصرح لهم بالدخول، وبعد تبليغ الحراس لمسؤولي القصر بوصول الحجاج الفرنجة من القنصل الفرنسي - وكان المسؤول عن الحجاج أمام الدولة المملوكية - لتأكيد السماح لهم بالدخول، ولما جاء الأمر أدخلوا إلى بهو عبروه ليصلوا إلى قاعة انتظار فيها مجلس كبير، ووجدوا فيها عدداً من الأمراء وأهل البلاط الذين استقبلوهم بالترحاب، ثم طلب منهم صعود سلم كان في أعلاه باب يفضي إلى صالة واسعة كبيرة لكن المرافق لهم - يبدو أنهم المشرفين على القصر - طلبوا منهم قبل دخول الصالة خلع أحذيتهم لأنهم وصلوا لمجلس الحكم الذي كان جالساً في وسطه نائب الإسكندرية في مكان مرتفع عن مستوى الصالة، لابساً لقماش من الحرير، متحلقاً حوله رجال البلاط وقوفاً أمامه، وطلب منهم الانحناء وتقبيل الأرض وأيديهم ممدودة للأمام، وتكرر الأمر عند وصولهم إلى قرب مكان جلوس الأمير (فريسكو بالدي، 2010م: 72؛ وقارن سيغولي، 2010م: 122، الذي قدم رواية مختصرة جداً حول هذا الموضوع).

وأفاض فريسكو بالدي في وصف عادة تعليق الأقمشة في صالات القصر، وزخرفة الصالات الجميلة، وكثرة الأقمشة

والسجاد الرائع الموجود في تلك الصالات بطريقة جعلته مندهشاً لجمال ترتيبها والذوق الرفيع في تنسيقها، إضافة لروعة صناعتهما، وجودة أنواع القماش (فريسكو بالدي، 2010م: 72).

وقد تكرر هذا الأمر مع فريسكو بالدي في قصر الحكم في غزة، حيث وصف جمال القصر، وصالاته، وأقمشته وزخارفه، وأكد على عادة الانتظار في بهو الاستقبال حتى يؤذن لهم بالدخول، كما أكد على طلب الانحناء منهم، وخلع أحذيتهم، وقيامهم بتقبيل الأرض عند دخول مجلس الحكم، ثم عند الوصول قرب مجلس النائب (فريسكو بالدي، 2010م: 98، في حين لم يشر سيغولي إلى اللقاء ولا ذكره، سيغولي، 2010م: 134).

وهذا الأمر يؤكد على عادات محددة لدخول قصور الأمراء، ووجود رسوم واضحة ومحددة لطريقة الدخول، وكيفية الدخول، والمطلوب من الداخلين الالتزام به عند دخول مجلس الحكم.

ومن العادات التي رصدها الرحالان، حسن تعامل المجتمع مع الضيوف من غير المسلمين، وخاصة الفرنجة، وإن رصدا حالة من الاحتياط في التعامل معهم خشية أن يكونوا جواسيس، خاصة أن أوروبا ما زالت في حالة حرب مع المسلمين، لذلك كانت الدولة تتخذ احتياطات أمنية، فلا يتجولون دون وجود الترجمان المعين من الدولة معهم (فريسكو بالدي، 2010م: 71، 75؛ سيغولي، 2010م: 121)، ولكنهما أشارا إلى أن ظهور أي فرنجي أمام جنازة مسلم كان بالنسبة للمجتمع إساءة، لذلك كانوا يقومون بضربه والإساءة إليه (فريسكو بالدي، 2010م: 73)، وكذلك كان يمنع على الفرنجة دخول مساجد المسلمين، فإن فعلها أحدهم ودخل المسجد، فإنه يعرض نفسه لعقوبات شديدة من قبل الأهالي قد تصل إلى القتل (فريسكو بالدي، 2010م: 74)، ويمنع على الفرنجة مغادرة الخان الذي يوضعون فيه حتى انتهاء صلاة الجمعة (فريسكو بالدي، 2010م: 74).

ولكن الملاحظ هنا أن تسامح المجتمع المصري، وتعامله الجيد مع الحجاج الفرنجة كان يعاكسه تماماً تعامل المجتمع الدمشقي معهم، حيث كان عدائياً جداً، وخاصة العامة الذين ما أن شاهدوا الرحالين حتى قاموا بقذفهم بالحجارة، وشنتمهم، الأمر الذي أجبر ترجمانهم على الهرب، وتركهم ومصيرهم، لولا تدخل بعض كبار السن الذين منعوا العامة من رجمهم، وتوسطوا بينهم وبين الرحالين، ولولا ذلك لأصيبوا بأذى كبير، ولكن هذا التدخل مكنهم من الوصول إلى الخان الذي يجب أن ينزلوه، ولم يصب أحد منهم بأذى (فريسكو بالدي، 2010م: 109؛ سيغولي، 2010م: 136)⁽⁶⁾. والظاهر أن هذا الموقف من أهل دمشق ناتج عن الصراع الإسلامي-الفرنجي الصليبي طوال قرنين من الزمن، حيث تعرضت خلاله دمشق ونواحيها لهجمات عنيفة من الفرنجة الصليبيين، كما تعرضت قوافلها التجارية لاعتداءات عديدة منهم (ابن القلانسي، 1983م: 356-357، 462-468؛ سبط ابن الجوزي، 2013م: 218/20، 281-284) مما جعلهم أكثر عدائية من المجتمع المصري الذي عانى أيضاً من الحروب الفرنجية الصليبية، لكنه كان أكثر استيعاباً للمسألة من أهل دمشق.

وقد أشار الرحالان إلى مجموعة أخرى من العادات والتقاليد التي رصدها ودونها في رحلتيهما، لعل أبرزها عادة توارث المهن والصناعات والتجارات، حيث ذكرا أن من أسباب إتقان الصنعة في دمشق تعود في جزء منها إلى عادة توارث المهن حيث لا يجوز لأولاد الصانع أو الحرفي أو التاجر اختيار صنعة غير صنعة أو تجارة والدهم، فالتجارة

(⁶) يشير سيغولي إلى أنهم وصلوا دمشق يوم الجمعة الساعة الثالثة ظهراً تقريباً، ويشير إلى أن الأهالي عاملوهم وكأنهم كلاب، وأنهم ما دخلوا حياً من أحياء دمشق إلّا وقذفوا بالحجارة. وذكر أنه كلما توغلو في البلد قبلوا بالعداء إلى أن وصلوا إلى خان المسافرين. انظر: سيغولي، رحلات في الأراضي المقدسة، ص 136.

والصناعة تورث من جيل إلى جيل، لذلك فهم يتقنون عملهم بشدة، ولذلك لا يجوز للتاجر أو الصانع تغيير مهنته، فإذا كان الأب بائع قماش أو صائغاً أو أي مهنة أخرى وجب على كل ذريته امتحان صناعته (فريسكو بالدي، 2010م: 111؛ سيغولي، 2010م: 138).

وتحدث سيغولي عن نظافة المجتمع الإسلامي في العصر المملوكي، وولعه بالعطور والورود بحيث أن رجال القاهرة ونساءها يمضون نهارهم بين الورود، ويعطرون أنفسهم بالمسك وبماء الورد بمبالغ كبيرة يوميًا، وتبالغ النساء في اقتناء ووضع العطور يوميًا سعيًا منهن لإرضاء أزواجهن (سيغولي، 2010م: 132)، وهذه عادة دائمة يومية لأهالي المدن في مصر وبلاد الشام، ولذلك تحدث عن ماء الورد الدمشقي الذي يعد حسب رأيه الأجود في العالم، والذي يصنع منه ألوف القوارير، وهذا كله يؤكد اهتمام المجتمع بالعطور، وأنه عادة وتقاليد في المجتمع الإسلامي آنذاك (فريسكو بالدي، 2010م: 112؛ سيغولي، 2010م: 137).

وأشار سيغولي إلى عادة المجتمع الدمشقي من رجال ونساء بالخروج في فصلي الربيع والصيف إلى خارج دمشق حيث الغوطة والمصايف للتنزه بين الأشجار في البساتين الممتدة على طول نهر بردى وتفرعاته (سيغولي، 2010م: 137). ويبدو أن هذه المعلومة نقلت له ولم يشاهدها لأنه لم يكن في فصل الربيع والصيف في دمشق وأورد الرحالان عادة الأكل في الشارع التي يمارسها معظم أهالي المدن في مصر وبلاد الشام، وانتشار محلات الطبخ في محلات مخصصة لها بالإسكندرية والقاهرة ودمشق، بحيث اعتقدا لكثرة تلك المحلات وكثرة روادها من الأهالي أن سكان المدن لا يقومون بالطبخ في بيوتهم مهما بلغ أحدهم من الثراء (فريسكو بالدي، 2010م: 83)، وذكر فريسكو بالدي أن في القاهرة عدد كبير من الطهاة الذين يطبخون الطعام في الشوارع ليلاً ونهارًا، وأنهم يعدون الطعام في أوانٍ مصنوعة من القصدير (فريسكو بالدي، 2010م: 82؛ سيغولي، 2010م: 139).

ووصف فريسكو بالدي كيفية أكل أهل القاهرة في الشارع حيث يفرشون قطعة من الجلد يضعون عليها أواني الطعام، ثم يتحلقون حولها متربعين، ويتناولون طعامهم، فإذا أنهوا أكلهم لعقوا أفواههم بألسنتهم (فريسكو بالدي، 2010م: 83). وقد علل سيغولي سبب اعتماد الأهالي في مصر والشام على الأكل المطبوخ في الشوارع بعلّة ارتفاع أسعار الخشب المستخدم في الطهي لدرجة قدر أن سعر الخشب أعلى من اللحم، لذلك كانوا يتوجهون لشراء الأكل المطبوخ في الشارع لأنه أرخص عليهم من طبخه في بيوتهم (سيغولي، 2010م: 139).

وذكر فريسكو بالدي عادات المسلمين في الدفن في مدينة الإسكندرية، فعندما يموت رجل يدفن في قبور المسلمين الموجودة خارج مدينة الإسكندرية الجديدة، ويخرج مع الجنازة عدد كبير من الناس يشيعون جنازة الميت بحسب مقامه، وكذلك يقومون بذبح الخراف وتوزيعها على الفقراء ورجال الدين عن روجه، وتكثر الخراف أو تقل حسب ثروة الميت، وتوزع أيضًا الصدقات وفقًا لمقام الميت (فريسكو بالدي، 2010م: 73).

ثالثًا - الزواج والطلاق

تحدث الرحالان بإسهاب - مقارنة بحجم رحلتيهما - عن عادات الزواج ومراسمه والطلاق في المجتمع الإسلامي في مصر وبلاد الشام في الفترة التي زارا بها المنطقة، وهي سنة 786هـ/ 1384م حيث ذكرا قيام الرجل بدفع مهر لزوجته عند الزواج، وهو عكس ما يحدث في أوروبا حيث تدفع الزوجة مهرًا لزوجها، وأن مقدار المهر يتحدد بمكانة الرجل الاجتماعية، فكلما زادت مكانته زاد مقدار المهر، وأن المهر لا يدفع كاملاً بل يقوم الزوج بتقسيمه لزوجته بعد الزواج على دفعات حتى يستوفيه كاملاً (فريسكو بالدي، 2010م: 83).

وذكر انتشار عادة تعدد الزوجات في المجتمع آنذاك، حيث أن الرجل المسلم لا يكتفي بزوجة واحدة، بل لديه أكثر من زوجة، وهذا الأمر ينطبق على الأثرياء والفقراء على حد سواء، والرجال من أعلى المناصب لأدناها، حيث أشار إلى تعدد زوجات السلطان برقوق، وخطا بين الزوجات، والإماء من ملك اليمين (فريسكو بالدي، 2010م: 83؛ سيغولي، 2010م: 130).

وتحدثا عن الطلاق عند المسلمين، وحق الزوج بطلاق زوجته مرتين يتمكن خلالها من إعادة زوجته إلى عصمته، ويفقد هذا الحق بعد المرة لثالثة بإعادتها لعصمته إلا بعد زواجها من رجل آخر وطلاقها منه عندها يحق له إعادتها لعصمته، وكل ذلك يجب أن يكون عند القاضي، كما ذكرنا وجود حق للمرأة بطلب الطلاق من زوجها، وخاصة إن لم يتم الزوج بممارسة حقه الزوجي معها، حيث تقدم شكوى بحقه للقاضي الذي يطلقها منه إن ثبت صحة ما تدعيه، ويحق لها عندها أخذ المتبقي لها من مهرها عند زوجها (فريسكو بالدي، 2010م: 83؛ سيغولي، 2010م: 122)، وهذه الإشارات من الرحالين تدل على إطلاع واسع منهما أثناء رحلتهما على عادات الزواج والطلاق عند المسلمين.

وتفرد سيغولي بالحديث عن مراسم الزواج وحفلته التي تقوم بها النساء في القاهرة عند زفاف أي امرأة، حيث تقوم النساء بالدخول إلى منزل العروس يوم الزفاف يحملن معهن أوعية الحليب والشراب الدمشقي الموضوع في كؤوس دمشقية مزينة، وبعضهن يحملن أقمشة الكتان، والبعض الآخر يحملن صناديق جميلة، وكلها هدايا للعراس، والنساء يحملن الهدايا كل حسب إمكانياتها المالية، وفي الليل تستعد العروس للذهاب إلى بيت زوجها، وقبل الخروج إلى بيت زوجها تقوم المرافقات لها بمساعدتها في خلع ملابسها، ويقمن بتزيينها بالرسم على جسدها وأرجلها وذراعيها برسوم لأشكال حيوانية مثل الأرانب والغزلان والطيور، أو أشكال نباتية مثل الأشجار والأوراق، ثم يقمن بمساعدتها في لبس سبعة أثواب فوق بعضها البعض ألوانها فاتحة، وتختار من القماش الناعم والبراق المرتفع الثمن، ثم يرافقنها إلى بيت زوجها الذي ما أن تدخله حتى يستقبلها الزوج، فتعطيه خنجرًا تحمله معها، وكأنه تقليد يؤشر إلى انتقال أمنها وحمايتها من أبيها إلى زوجها (سيغولي، 2010م: 126).

وبعد دخول منزل الزوج تجلس على سرير عليه من 6 إلى 8 فرشاة موضوعة فوق بعضها بعضًا، ومغلقة بالحريز، ثم بعد جلوسها تبدأ النساء بالاحتفال بها من خلال الرقص، وبعد انتهاء كل امرأة من رقصها تتجه نحو العروس، وتقدم لها هدية إما دنانير ذهبية أو خاتمًا، توضع في رأس العروس من خلال دبوس لثلا يقع على الأرض، وتقوم العروس بفكها ووضعها في علبة موجودة أمامها، وتظل العروس جالسة تجمع الهدايا التي قد تصل إلى مئات الدنانير (سيغولي، 2010م: 126-127)، وهذه إشارة إلى هدايا الزفاف، وهي عادة متبعة حتى الآن.

أما طبيعة رقص تلك النساء، فهو عبارة عن حركات تبدأ بالقفز للأعلى ثم الجلوس بطريقة القرفصاء، ثم الوقوف رافعة الثوب إلى الأعلى، ثم ترفعه لليمين ثم اليسار، ثم باتجاه الرأس وبحركات جميلة، مع ملاحظة أن رفعها للثوب لا يكشف جسدها، بل يبقى جسدها مغطى بقماش يبدو أنه سروال يستر رجليها حتى القدمين (سيغولي، 2010م: 126).

وهذه إشارات فريدة إلى طقوس الزواج في القاهرة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وربما لم ترد عند رحالة آخر في تلك الفترة. وأورد سيغولي أثناء الحديث عن طقوس الزفاف إشارات توحى وكأنه شاهد تلك الطقوس، حيث يقول عن الرقص: "أما الرقص فكله حركات غريبة لم نشاهدها من قبل" (سيغولي، 2010م: 126)، وقوله: "وبحركات هي من أجمل الحركات التي شاهدناها" (سيغولي، 2010م: 126)، لكن هل كان مسموحًا لرحالة أوروبي أن يدخل إلى حفلة نسائية في العرس ليشاهد ما وصفه؟ الراجح أن إحدى زوجات المترجمين الذين عملوا معه أخبرته

بتلك المراسم والطقوس، وحكم من خلال الوصف أن ذلك الرقص مخالف لما هو مألوف في إيطاليا من رقص آنذاك، ورغم ذلك تبقى إشارات تلك مهمة جدًا لوصف عادات حفلة العرس في القاهرة آنذاك.

رابعًا - الطقوس الدينية

تنبه فريسكو بالدي وسيغولي إلى تفاصيل دقيقة حول عبادات المسلمين بصورة لم ترد عند غيرهما من الرحالة الأوروبيين، وأظهر فهمًا جيدًا للدين الإسلامي وشعائره بطريقة لم نجدها عند غيرهما من الرحالة، وربما يعود الأمر إلى أنهما ينحدران من المدن الإيطالية التي كانت لها تجارة واسعة مع الدول الإسلامية آنذاك، وكان يتردد إليها ويعيش فيها جالية تجارية إسلامية سهلت عملية اطلاعهما على الدين الإسلامي وشعائره، وأهم عباداته (بيداني، 2017م: 354-363)، لذلك كانا قادرين - قياسًا بأقرانهم من الرحالة الأوروبيين - على فهم الدين الإسلامي وطقوسه وشعائره، وإن أوردنا بعض المعلومات الخاطئة عن الشعائر الإسلامية، لكنها تغدو محدودة مقارنة بما قدمه غيرهما من الرحالة الأوروبيين (سوزن، 2006م: 125-132).

تحدث فريسكو بالدي عن التشابه الكبير بين الدين الإسلامي والدين المسيحي، حيث يُكنّ المسلمون احترامًا كبيرًا للسيدة مريم العذراء، وللقديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام)، والقديسة كاترينا، كما يبجلون السيد المسيح عليه السلام، ويعتبرونه أكبر الأنبياء، ما خلا محمد صلى الله عليه وسلم، واعتقاد المسلمين فيه أنه لم يولد من شخص، وإنما هو روح الله (فريسكو بالدي، 2010م: 83)، وبسبب هذه المحبة تجدهم يحتفون كثيرًا بالسيدة مريم العذراء، ويشعلون الشموع ليلاً ونهارًا في كنيسة هيلانة، ويقومون بتمويل معيشة الرهبان فيها، ويظهرون من كثرة اهتمامهم بالسيدة مريم العذراء والكنيسة في بيت لحم وكأنهم مسيحيون (فريسكو بالدي، 2010م: 101)، كما نبّه إلى اعتراف المسلمين بأنبياء العهد القديم وتبجيلهم لهم (فريسكو بالدي، 2010م: 83).

إن هذا تنبه دقيق من فريسكو بالدي للمكانة الكبيرة للسيد المسيح عليه السلام ووالدته في التراث الإسلامي، ونظرة المسلمين لولادته عليه السلام، ومكانته بين الأنبياء عند المسلمين، واعتراف المسلمين بأنبياء بني إسرائيل، وهو يدل على أن فريسكو بالدي إما كانت لديه معلومات عن الإسلام قبل رحلته، أو أنه عندما جاء إلى مصر وبلاد الشام كان منفتحًا لمعرفة التعاليم الإسلامية من خلال المسلمين لا من خلال تصورات ذهنية سابقة في أوروبا تنظر نظرة عدائية وتشويهية للمسلمين ودينهم.

وتحدث الرحالة عن مساجد المسلمين التي سماها (كنائس) تأثرًا بأماكن العبادة المسيحية، وأنها خالية من اللوحات على عكس الكنائس، وجميعها مصبوعة باللون الأبيض، ولها مآذن يعتليها أشخاص للمناداة عند أوقات الصلوات، والمسلمون يستخدمون هذه الطريقة على عكس الطريقة المسيحية باستخدام الأجراس (فريسكو بالدي، 2010م: 74؛ سيغولي، 2010م: 125).

وتحدثنا عن مكانة يوم الجمعة المقدس - كما ذكرنا - عند المسلمين، وإن أخطأ بالدي فجعله يوم الإثنين (فريسكو بالدي، 2010م: 74)، وعادات المسلمين التي يتبعونها في هذا اليوم حيث يقومون منذ الصباح بالاغتسال والتطهر منذ الصباح، ويلبسون أجمل ملابسهم ليتوجهوا وقت الظهر إلى المساجد، ويقومون فيها للصلاة لمدة ساعتين تقريبًا، وأنهم يمتنعون في هذا اليوم عن ارتكاب المعاصي. ووصفا كيف يقوم المسلمون بالوضوء للصلاة، ثم يخلعون أحذيتهم عند بوابات المسجد، وعند دخولهم يقبلون الأرض مرات، وهذا جهل منهم لصلاة تحية المسجد، ثم يجلسون حتى يصعد القاضي سلمًا (المنبر) فيبدأ بالخطبة والوعظ عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لكي يقتدي الناس بسيرته،

ويتكلم عن أشياء أخرى، وزعما أن في نهاية الخطبة يخرج الخطيب خنجرًا ويصيح بصوت عالٍ من يعترض فهذا نصيبه، فيرد عليه المسلمون: الله أكبر، آمين، وهي سوء فهم لدعاء الخطيب في آخر الخطبة، وتأمين الناس على دعائه (فريسكو بالدي، 2010م: 74؛ سيغولي، 2010م: 125، 129).

ووصفا عادات المسلمين في شهر الصوم، حيث ذكرا أن المسلمين يصومون لمدة شهر قمري كامل كل سنة، فيمتنعون عن الأكل والشرب طوال النهار، ويأكلون ويشربون طوال الليل عندما تظهر النجوم، وتنبه فريسكو بالدي إلى أن شهر الصيام يتغير من سنة إلى سنة تبعًا لنقص السنة القمرية عن الشمسية، وأن من عاتهم أكل اللحم بداية ثم بقية الأكل والشرب، وهم يأكلون في أسواقهم، وبعد الأكل يرقصون ويغنون حتى الفجر، ويبدو أنها إشارة إلى الأغنيات التراثية المرحبة بقدوم شهر صوم، والتغني بمكارم الأخلاق، وأشارا إلى المسحر الذي مهمته إيقاظ الناس للسحور ثم الصلاة، وأنه يستخدم دُفًا لإيقاظهم، وينادي على الناس بأسمائهم، وأما في النهار فيقضونه في المساجد والصلاة (فريسكو بالدي، 2010م: 83، 99؛ سيغولي، 2010م: 125).

خامسًا - الأعياد

أشار الرحالان إلى وجود عيدين لدى المسلمين يحتفلون بهما كل عام، الأول هو عيد الفطر الذي يحتفلون به بعد انتهاء الصوم، وإن ذكر سيغولي أن مدة عيد الفطر ثمانية أيام ويبدو أن السبب في الخلاف في عدد أيام الاحتفال أن بالدي يشير إلى الاحتفال بالأضحى في نابلس بينما يشير سيغولي إلى الاحتفال في القاهرة، ويبدأ الأهالي بالاحتفال بعد مشاهدة القمر الجديد بعد رمضان، فيحتفلون في الساحة الكبرى، وتدف الطبول، ويغني الناس ويرقصون ويأكلون، ويمارسون الألعاب الرياضية مثل رفع الأثقال، وبيع الطهارة اللحم والأطعمة اللذيذة الأخرى طوال فترة العيد (فريسكو بالدي، 2010م: 99؛ سيغولي، 2010م: 125).

والواقع أن سيغولي فصل في عادات المصريين بالعيد بعكس فريسكو بالدي الذي تحدث عنه باختصار، وتضمن وصف العيد إشارة إلى الممارسات الشعبية به، وبخاصة في قضايا الألعاب الرياضية التي ما زالت تشتهر بها مصر في الأعياد والمواالد.

الثاني عيد الأضحى، وتنبه الرحالان إلى أنه احتفال إسلامي بتخليص الله لابن إبراهيم عليه السلام من القتل، واقتدائه بكبش نزل من السماء، ولم يشر سيغولي إلى اسم ابن إبراهيم عليه السلام، في حين انشاق فريسكو بالدي وراء الرواية التوراتية بأنه إسحاق عليه السلام، ولم يتنبه إلى أن المسلمين يحدونه بإسماعيل عليه السلام، وذكر أن مدة العيد ثلاثة أيام يحتفل فيها المسلمون ويغلقون فيها محلاتهم ولا يفتحونها، ويقومون بالتضحية بالخراف لتوزيعها على الفقراء اقتداءً بتلك المعجزة (فريسكو بالدي، 2010م: 99؛ سيغولي، 2010م: 127).

سادسًا - المرأة

امتازت رحلتا فريسكو بالدي وسيغولي بإشارات فريدة إلى المرأة المسلمة ووضعها في المجتمع المصري سنة 786هـ/ 1384م، وإن كانت تلك الإشارات قليلة نزره مقارنة بما جاء في الرحلتين من موضوعات أخرى، لكنها كاشفة ومهمة لتبيان جزء من وضع المرأة آنذاك.

نجد من خلال تلك الإشارات القليلة أن المرأة كانت ناشطة، وتلعب دورًا محوريًا في المجتمع آنذاك حيث نجدها قادرة على مغادرة بيتها، وتتواجد في الأسواق تشتري ما تريد من بضائع واحتياجات، لكنها تغطي وجهها حتى لا يعرفها أحد لغيرة الرجال على النساء، لذلك لا يخرجن إلا وقد غطين وجوههن، وساترت لكل أجسادهن (فريسكو بالدي،

2010م: 81؛ سيغولي، 2010م: 121).

كذلك قدم الرحالان معلومات عن عمل المرأة تاجرة في القاهرة، وذكر أن تلك النسوة التاجرات ينتمين إلى الطبقات السفلى في المجتمع، وعددهن كان كبيراً جداً، ويقمن بالتجارة بالبضائع المتنوعة التي يقمن ببيعها بين القاهرة ورشيد ودمياط والإسكندرية، ويركبن البغال التي يقودها الأولاد في البر، ويركبن السفن النهرية للوصول إلى المدن الأخرى، ووصفا قدرتهن التجارية البارعة بحيث قالاً أنهن يمتنهن التجارة كأى تاجر محترف (فريسكو بالدي، 2010م: 78، 80؛ سيغولي، 2010م: 125).

وهذه الإشارة الفريدة تدل على مساهمة فاعلة للمرأة في تجارة مصر في العصر المملوكي ربما لم ترد في غير هاتين الرحلتين عن هذا الدور المتفرد للمرأة المسلمة المصرية في اقتصاد مصر في العصر المملوكي. وأشارا إلى لباس المرأة، وحبها للتعطر رغبة في إرضاء زوجها، وحقها في طلب الطلاق من زوجها إذا لم يمارس حقوق الزوجية، كما ذكرا خروجها مع الرجال إلى المتنزهات للترفيه عن نفسها، وهي قضايا تطرقنا لها في العناوين السابقة من هذا البحث، وكلها تؤشر إلى نشاط كبير للمرأة في المجتمع المملوكي (فريسكو بالدي، 2010م: 83، 109؛ سيغولي، 2010م: 121، 122، 132، 137).

سابقاً - الأزياء

لعل الاهتمام بأزياء أهل مصر رجالاً ونساءً من القضايا اللافتة في رحلتي فريسكو بالدي وسيغولي، وقاما بتقديم وصف متميز للباس الرجال والنساء آنذاك بشكل دقيق يدل على اهتمام كبير من الرحالين بأزياء أهل مصر، وقاما وصفاً دقيقاً له كما شاهداه أثناء رحلتيهما.

ولعل أول ما استرعى انتباه الرحالين أزياء الرجال من عسكريين وعامة، فذكر فريسكو بالدي عن العسكريين أنهم لا يلبسون دروعاً ثقيلة مثل الفرسان الأوروبيين، ولا يضعون خوذاً تغطي كل الرأس والوجه مثل الأوروبيين، بل يكتفون بوضع خوذة تغطي الرأس فقط من الحديد ملفوفة بنسيج أبيض، ويضعون على صدورهم دروعاً خفيفة تغطي الصدر فقط، ويحملون أقواساً، ويضعون خناجر على أوساطهم في حزام، ولعله يصف جنود المشاة من المماليك (فريسكو بالدي، 2010م: 71).

أما الرجال من العامة، فأورد فريسكو بالدي أنهم يلبسون سراويل طويلة، وينتعلون أحذية مغطاة، ويضعون على رأسهم عمامة من النسيج الأبيض، ويلبسون فوق السراويل رداء أبيض من الحرير أو الكتان الخفيف (فريسكو بالدي، 2010م: 81)، وأشار سيغولي إلى أن ملابس الرجال المسلمين كلها من الحرير الأبيض، وهي طويلة وعريضة وتصل إلى الأقدام، والأكمام طويلة وعريضة كأنها قميص راهب، وهو بذلك يصف أردية المسلمين، ووصف العمامات أو القلائس التي على رؤوسهم بأنها مدببة، وحجمها قرابة 25 إلى 30 ذراعاً من قماش الكتان الشديد النعومة، وأحياناً يلبسون طاقية تثبت حافتها إلى الخلف. ووصف الرجال بأنهم أجمل أجساماً من الأوروبيين، وأنهم يرخون لحاهم الطويلة، ومنظر كبار السن منهم جميل ووقور (سيغولي، 2010م: 125).

أما النساء فقدم وصفاً مهماً لإزيائهن، حيث ذكر فريسكو بالدي أن لباس النساء مصنوع من الأقمشة المطرزة والمشغولة، ويبدو أنه يصف العباءة التي تلبسها النساء عند خروجهن، وتلبس النساء تحتها قطعاً من الكتان الإسكندراني الأبيض، وتلبس النساء أيضاً سراويل حتى الركب تغطيها برداء فوقها، ولا يظهر منهن إلا أعينهن، وتتميز النبيلات منهن بوضع خمار ذي لون أسود يغطي الوجه والعيون كي لا يراهن أحد، وينتعلن في أرجلهن أحذية بيضاء طويلة،

ويلبس سراويل طويلة حتى الكعب مطرزة بشكل جميل تكون جودتها وثمنها متماثلة مع الوضع الاقتصادي لكل امرأة، حيث يكون بعضها مصنوعاً من الحرير أو خيوط الذهب والفضة، ومرصعة بالأحجار الكريمة، ومطرزة باللؤلؤ (فريسكو بالدي، 2010م: 81)، وقد شرح سيغولي الخمار الذي تضعه النساء على وجوههن من الحرير الأبيض لعامة النساء، والأسود للنبيلات بحيث لا يستطيع أحد معرفتهن حتى أزواجهن إن مررن أمامهن لا يعرفون، وقدّر سعر البنطال الذي تلبسه النساء قد يصل إلى أكثر من 400 دينار ذهبي إذا كان مرصعاً باللؤلؤ أو الأحجار الكريمة، أما القمصان الحريرية المطرزة بالذهب والفضة التي تلبسها النساء تحت الرداء يصل سعر الواحد منها إلى أكثر من 200 دينار ذهبي (سيغولي: 2010م: 121).

وهما يشيران إلى جمال لباس المرأة المصرية، وذوقه الرفيع، وتميزه بالتطريز، والمطعم بالأحجار الكريمة، والمطرز بخيوط الذهب والفضة، ومدى تناسقه مع بعضه بعضاً، وارتفاع سعر ألبسة النساء الثريات، ولم يشير إلى أزياء نساء دمشق، وذلك إما لعدم قدرتهم على وصفه لعدم رؤية نساء في أسواق دمشق، أو لأنه كان مماثلاً لأزياء نساء مصر، فاكثفوا بوصف زي المرأة المصرية .

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج الرئيسية، من أهمها:

1- الأهمية الكبيرة لكتب الرحلات في التأريخ للأوضاع الاجتماعية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وتأتي في مقدمة كتب الرحلات المهمة للجانب الاجتماعي رحلتا فريسكو بالدي وسيغولي لما تضمنتا من معلومات على درجة عالية من الأهمية لهذا الموضوع.

2- وصل الرحالان إلى مصر وبلاد الشام سنة 786هـ / 1384م، وقضيا فيهما قرابة السبعة أشهر مكنتهما من الاطلاع على الكثير من الأوضاع الاجتماعية في مصر وبلاد الشام، وإن كان تركيزهما الأكبر على المجتمع المصري لأنه أول مجتمع إسلامي اختلطا به، إضافة إلى تشابه الأوضاع الاجتماعية بين مصر وبلاد الشام؛ لذا ركزا على المجتمع المصري أكثر من المجتمع الشامي.

3- تمكنت الدراسة من تجلية أسباب النظرة المتزنة والمتقهمة للدين الإسلامي وشعائره الناتجة عن انحدار الرحالان من إيطاليا التي كانت لها علاقات واسعة مع العالم الإسلامي تمكن مجتمعها من خلاله من الاطلاع على الدين الإسلامي؛ ولذلك كانت الإشارات في الرحلتين للدين الإسلامي متزنة، ومتقهمة للكثير من القضايا الإسلامية على عكس الكثير من الرحالة الأوروبيين السابقين أو اللاحقين أو حتى المعاصرين لهما.

4- لم تكن المشاهدة الشخصية للرحالين المصدر الوحيد الذي اعتمدا عليه في تدوين رحلتيهما بل اعتمدا على روايات شفوية فيما لم يستطيعا مشاهدته من خلال القناصل الأوروبيين المقيمين في الدولة المملوكية، أو المترجمين، وبعضهم كان أوروبياً وأسلم مع زوجاتهم مما مكن زوجاتهم من الاختلاط بالمجتمع النسائي الإسلامي، وقدموا للرحالين معلومات مهمة عنه.

5- قدم الرحالان معلومات مهمة عن عادات المجتمع الإسلامي، وبخاصة عن فئات المجتمع وأقسامه، وعاداته وتقاليده، وخاصة في الاحتفال بالأعياد، وأهم تلك الأعياد، كما قدموا معلومات عن آداب الاستقبال، وطرق الأكل في محلات الأكل المتوافرة بكثرة في الأسواق.

6- تضمنت الرحتان معلومات مهمة عن أزياء الرجال والنساء، وملابسهم، وأقسام ذلك الزي، والمواد التي تصنع منها،

- والألوان المستخدمة، إضافة إلى التطريز الذي يضاف للملابس، وتضمن الوصف الذي المرتبط بالرأس والجسم، والأحذية، ومكونات كل قسم منها، وهي معلومات على درجة عالية من الأهمية لأزياء العصر المملوكي.
- 7- شملت الرحلتان معلومات فريدة عن نشاط المرأة في المجتمع المملوكي، وخاصة وضعها ونشاطها التجاري، وخروجها للأسواق، وحفلات الأعراس التي تقيمها النساء، وغير ذلك من أمور تخص المرأة بحيث قدمت صورة حيوية لدور المرأة في العصر المملوكي.
- 8- قدمت الرحلتان صورة متميزة عن نشاط المجتمع المملوكي بحيث يظهر مجتمعاً حيوياً زاخراً بالنشاط، والأفراح، والاحتفالات، والعادات والتقاليد.
- 9- كان اهتمام الرّحّالين بالملاحظات التفصيلية عن مصر أكثر من الشام؛ وذلك بسبب وجودهم الأول في مصر، وتشابه العادات والتقاليد فاعتبروها واحدة، ولو أنهم وجدوا شيئاً يميز أهل دمشق عن أهل مصر لذكروهم في رحلتيهما.

Social Life in Egypt and the Levant During the Early Reign of Sultan Barquq 784-801 AH / 1382-1399 AD Through the Journeys of the Italian Travelers Frescobaldi and Sigoli

Issam Okleh¹, Modar Adnan Telfah²

ABSTRACT

This article examines the journeys of the Italian travelers Leonardo Frescobaldi and Simone Sigoli who visited Egypt and the Levant in 786 AH / 1384 A.D. The accounts of their trips provide political, economic, social and religious information about the Mamluk state at that time. The study identifies their sources for information that they did not see themselves and highlights the value of the most important observations about social conditions in Egypt and the Levant, traditions, dress, religious rituals and festivals, and the status of women in the Islamic society. The two travel accounts are important for the study of social conditions in the Levant and Egypt in the Mamluk era. The two trailers relied on sources like consuls, translators, and merchants who transmitted unique information about social life, customs, traditions and dress that other European travelers did not report.

Keywords: *Leonardo Frescobaldi, Simone Sigoli, Mamluk Period; Egyptian Society.*

¹Corresponding Author: email, oqlaissam@yahoo.com, (I. Okleh) Orcid number: <https://orcid.org/0000-0002-5947-6420>, Department of History and Islamic Civilization, University of Sharjah and History Department, University of Jordan.

²Second Author: email, mudar.t@yu.edu.jo, (M. A. Telfah) Orcid number: <https://orcid.org/0000-0001-7089-4175>, Department of History and Islamic Civilization, University of Sharjah and Department of History, Yarmouk University.

المصادر والمراجع العربية

- سليمان، إبراهيم (2013م)؛ "مدينة الإسكندرية في عصر المماليك البرجية من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين". مجلة كلية الآداب، جامعة قنا، مج 2، ع 40، صص 39-89.
- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت 630هـ/1232م)؛ *الكامل في التاريخ*، بيروت: دار صادر.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت 555هـ/1160م)؛ *تاريخ دمشق*، تحقيق سهيل زكار، دمشق: دار الفكر.
- بورشارد، بورشارد من دير جبل صهيون (ت 630هـ/1232م)؛ *وصف الأرض المقدسة*، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق للنشر.
- بيداني، ماريان بيا (2010م)؛ *البندقية بوابة الشرق*، ترجمة حسين محمود، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
- بيبرس، الدوادار، (ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري) (ت 725هـ/1325م)؛ *زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة*، تحقيق دونالد ريتشاردز، بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية.
- التميمي، إياد هشام (1998م)؛ "السامريون وأثر البيئة الإسلامية فيهم"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، الأردن.
- جون ماندفيل، السير جون (ت بعد 756هـ/1356م)؛ *أسفار السير جون ماندفيل ورحلاته*، ترجمة أنس الذهبي وبنا جزائري، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
- دانيال، الحاج الروسي دانيال الراهب (ت بعد 501هـ/1107م)؛ *وصف الأرض المقدسة في فلسطين*، ترجمة سعيد البيشاوي وداد أبو هدبة، عمان: دار الشروق للنشر.
- شاهين، رياض (2001م)؛ "هنة الرملة والظروف المحيطة بها". مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، مج التاسع، ع 1، صص 365-416.
- سايلوف، الحاج (ت بعد 496هـ/1103م)؛ *وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة*، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق للنشر.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (ت 654هـ/1256م)؛ *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان*، تحقيق إبراهيم الزبيق، بيروت: مؤسسة الرسالة العالمية.
- السلوي، سماح (د.ت)؛ *الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي*، القاهرة: دار الآفاق العربية.
- السلوي، سماح (2012م)؛ "رؤية الرحالة الأوروبيين لعادات وتقاليد المسلمين إبان العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)"، مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، ع 178، صص 211-242.
- سودرن، ريتشارد (2006م)؛ *صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى*، ترجمة رضوان السيد، بيروت: دار المدار الإسلامي.
- سيغولي، سيمونه (ت بعد 787هـ/1385م)؛ *رحلة إلى جبل سيناء*، ترجمة شيرين إبيش، منشور ضمن كتاب رحلات إلى الأراضي المقدسة، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
- شيلنبرغر، يوهان (ت بعد 826هـ/1427م)؛ *مغامرات شيلنبرغر وأسفاره*، ترجمة أحمد إبيش، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
- عبد السيد، حكيم أمين (1996م)؛ *قيام دولة المماليك الثانية*، القاهرة: الدار القومية للطباعة.
- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت 597هـ/1200م)؛ *الفتح القسي في الفتح القدسي*، تحقيق محمد صبح، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت 855هـ/1451م)؛ *عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان*، تحقيق إيمان شكري، القاهرة: مكتبة مدبولي.

- فيتلوس (ت بعد 524هـ / 1130م) (2011م)؛ وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي وفؤاد دويكات، عمان: دروب للنشر والتوزيع.
- فريسكو بالدي (ت بعد 787هـ / 1385م) (2010م)؛ رحلة إلى الأراضي المقدسة، ترجمة شيرين إبيش، منشور ضمن كتاب رحلات إلى الأراضي المقدسة، أبوظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.
- قاسم، عبده قاسم (1990م)؛ "ماهية الحروب الصليبية". عالم المعرفة، ع 149، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- لودلوف، فون سوخم (ت بعد 750هـ / 1350م) (2000م)؛ وصف الأراضي المقدسة، ج 37، ترجمة سهيل زكار، منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية، دمشق: دن.
- عوض، محمد مؤنس (1992م)؛ الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م)، القاهرة: مكتبة مدبولي.
- مؤلف مجهول (ق 6هـ / 12م) (2000م)؛ الحرب الصليبية الثالثة (ريتشارد وصلاح الدين)، ترجمة حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- المقريزي، نقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ / 1442م) (1997م)؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.
- يوحنا فورزبورغ (ق 6هـ / 12م) (1997م)؛ وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق للنشر.

REFERENCES

- ‘Abd al-Sayyid, Ḥakīm Amīn (1996), *Qiyām Dawlat al-Mamālīk al-Thānīyah*, Cairo: al-Dār al-Qawmīyah lil-Ṭibā‘ah.
- ‘Awad, Muḥammad Mu’nis (1992); *European Travelers in the Crusader Kingdom of Jerusalem (1099-1187 A.D)*, Cairo: Maktabat Madbūlī.
- al-‘Aynī, Badr al-Dīn Maḥmūd ibn Aḥmad (d 855 A.H/1451 A.D) (2002); *Iqd al-Jumān fī Tārīkh Ahl al-Zamān*, Imān Shukrī ed., Cairo: Maktabat Madbūlī.
- al-‘Imād al-Aṣfahānī, Muḥammad ibn Muḥammad ibn Ḥāmid (d. 597 A.H/1200 A.D) (2003); *al-Fath al-Qussī fī al-Fath al-Qudsī*, Muḥammad Ṣubḥ ed., Cairo: al-Ha’ah al-‘Āmmah li-Quṣūr al-Thaqāfah.
- Bibars, al-Dawādār (Rukn al-Dīn Baibars ibn ‘Abd Allāh al-Manṣūrī) (d 725 A.H/1325 A.D) (1998); *Zubdat al-Fikrah fī Tārīkh al-Hijrah*, Donald Richards ed., Beirut: al-Ma’had al-‘Almānī lil-Abḥāth al-Sharqīyah.
- Burchard of Mount Sion (d. 630 A.H/1232 A.D) (1995); *Description of the Holy Land*, Sa’id al-Bīshāwī, trans., Amman: Dār al-Shurūq lil-Nashr.
- Danial, al-Ḥāj al-Rūsī Dāniāl al-Rāhib (d. after 501 A.H/1107 A.D) (2003); *Description of the Holy Land in Palestine*, Sa’id al-Bīshāwī and Dāwūd Abū Hadbah, trans. Amman: Dār al-Shurūq lil-Nashr.
- Fetellus (died after: 524 A.H/1130 A.D) (2011); *Waṣf al-Arāḍī al-Muqaddasah fī Filasṭīn*, Sa’id al-Bīshāwī and Fu’ad Duwaykāt, trans., Amman: Durūb lil-Nashr wa al-Tawzī‘.
- Frescobaldī (d. after: 787A.H/1385A.D) (2010); *Riḥlah ilā al-Arāḍī al-Muqaddasah*, Shīrīn Ṭīsh, trans., in *Kitāb Riḥlāt ilā al-arāḍī al-muqaddasah*, Abū Ḍabī: Hay’at Abū Ḍabī lil-Siyāḥah wa-al-Thaqāfah.
- Frescobaldi, Leonardo, Giorgio Gucci and Simone Sigoli, Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384. Translated from Italian by Theophilus Bellorini and Eugene Hoade, with a preface and notes by Bellarmino Bagatti (Collectio Maior 6). Jerusalem: Franciscan Printing Press 1948.
- Ibn al-Athīr, ‘Izz al-Dīn ‘Alī ibn Muḥammad al-Shaybānī (d 630 A.H/1232 A.D) (1979); *al-Kāmil fī al-Tārīkh*, Beirut: Dār Ṣādir.
- Ibn al-Qalānisī, Abū Ya’lā Ḥamzah ibn Asad al-Tamīmī (d 555 A.H/1160 A.D) (1983); *Tārīkh Dimashq*, Suhayl Zakkār ed., Damascus: Dār al-Fikr.
- John of Würzburg, (6th cent. A.H/12th cent. A.D) (1997); *Description of the Holy Land in Palestine*, Sa’id al-Bīshāwī, trans., Amman: Dār al-Shurūq lil-Nashr.
- John Mandeville, (d. after: 756 A.H/1356 A.D) (2012); *Asfār Sir John mandfīl wa Riḥlātuh*, Anas al-Dhababī and Ranā Jazā’irī, trans., Abū Ḍabī: Hay’at Abū Ḍabī lil-Siyāḥah wa-al-Thaqāfah.
- Ludolphus von Suchem (d. after: 750 A.H/1350 A.D) (2000); *Waṣf al-Arāḍī al-Muqaddasah*, Vol. 37, Suhayl Zakkār, trans., from al-Mawsū‘ah al-Shāmīyah fī al-Ḥurūb al-Ṣalībīyah, Damascus: (N.P).
- al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn Aḥmad ibn ‘Alī (d 845 A.H/1442 A.D) (1997); *al-Sulūk li Ma’rifat Duwal al-Mulūk*, Muḥammad ‘Abd al-Qādir ‘Aṭā, ed., Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah.
- Pedani, Maria Pia (2010); *Venice, the Gate of the East*. Ḥusayn Maḥmūd, trans., Abū Ḍabī: Hay’at Abū Ḍabī lil-Siyāḥah wa-al-Thaqāfah.
- Qāsim, ‘Abduh Qāsim (1990); “Mā-Hīyah al-Ḥurūb al-Ṣalībīyah”. *‘Alam al-Ma’rifah*, Vol. 149, Kuwait: al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wa-al-Funūn.
- Shahin, Riyad (2000); “Hudnah al-Ramlah wa al-Zurūf al-Muḥīṭah bihā”. *Majallat al-Jāmi‘ah al-Islāmīyah*, Gaza, Vol. 9, No.1, pp: 365-416.
- Saewulf (d. after: 496 A.H/1103 A.D)(1997); *Description of the Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holy Land*, Sa’id al-Bīshāwī, trans., Amman: Dār al-Shurūq lil-Nashr.
- Schiltberger, Johann (d. after: 826 A.H/1427 A.D)(2017); *The Bondage and Travels of Johann Schiltberger*, Aḥmad Ṭīsh, trans., Abū Ḍabī: Hay’at Abū Ḍabī lil-Siyāḥah wa-al-Thaqāfah.

- Sibt ibn al-Jawzī, Yūsuf ibn Qaz'ūghlī (d. 654 A.H/1256 A.D)(2013); *Mir'āt al-Zamān fī Tawārīkh al-A'yān*, Ibrāhīm al-Zaybaq, ed., Beirut: Dār al-Risālah al-'Ālamīyah.
- Sigoli, Simone (d. after: 787 A.H/1385 A.D)(2010); Journey to Mount Sinai, Shīrīn Ībish. trans., from Kitāb Riḥlāt ilā al-Arāḍī al-Muqaddasah, Abū Ḥabīb: Hay'at Abū Ḥabīb lil-Siyāḥah wa-al-Thaqāfah.
- al-Sīlāwī, Samāḥ (N.D); *Social Conditions in Egypt and Syria in the Mamluk Period*, Cairo: Dār al-Āfāq al-'Arabīyah.
- al-Sīlāwī, Samāḥ (2012); "Views of European Travels about the Customs and Manners of the Muslims in the Mamluk Period (648-923 A.H/1250-1517 A.D)", *al-Majallah al-Tarbiyah*, al-Lajnah al-Waṭanīyah al-Qaṭarīyah lil-Tarbiyah wa-al-Thaqāfah wa-al-'Ulūm, Vol. 178, Pp: 211-242.
- Southern, Richard (2006); *Western Views of Islam in the Middle Ages*, Riḍwān al-Sayyid, trans., Beirut: Dār al-Madār al-Islāmī.
- Sulaymān, Ibrāhīm (2013); "The City of Alexandria in the Burji Mamluk Period in the Writings of European Travellers". *Majallat Kulliyat al-Ādāb*, Qena University, Vol. 2, No. 40, pp: 39 – 89.
- al-Tamīmī, Īyād Hishām (1998); "*al-Sāmīrīyūn wa-Athar al-Bī'ah al-Islāmīyah Fīhim*", Unpublished Master's Thesis, Āl al-Bayt University, al-Mafraq, Jordan.
- Unknown author (6th cent. A.H/12th cent. A.D)(2000); *The Third Crusade. (Richard and Saladin)*, Ḥasan Ḥabashī, trans., Cairo: Al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-'Ammah lil-Kitāb.